

الرؤية النقدية للآخر في خطاب مالك بن نبي

مقاربة نقد حضارية

The critical perspective of the other in the discourse of

Malik bin Nabi

A civilized criticism approach

يمينة تابتي*

جامعة عبد الرحمان ميرة، بجاية-الجزائر Yamina.tqbt@univ-bejaia.dz

تاريخ النشر:

2025-06-03

تاريخ القبول:

2025-05-06

تاريخ الإرسال:

2025-02-26

ملخص: تهدف هذه الدراسة إلى إعادة قراءة رؤية المفكر الجزائري مالك بن نبي لخطاب الآخر من منظور نقد ما بعد حداثي هو النقد الحضاري، وهذا من خلال طبيعة رؤيته الفكرية المتزنة لخطابات المستشرقين في تناولهم لنصوص الحضارة العربية الإسلامية وسردياتها الكبرى، وقد أبان عن قدرة في الاستغراب كوسيلة لفهم الآخر ومنطلقاته الفكرية والمرجعية وتقنياتها حضاريا وثقافيا لمعرفة طبيعة تفكيره، وهذا بحكم ازدواجية ثقافته، ثقافة أصيلة تمثل الهوية بعناصرها وثوابتها، وأخرى دخيلة يمكن التعايش معها والاستفادة منها، دون انحلال أو انغماس كلي فيها.

تعد رؤية مالك بن نبي هذه ذات توجه فكري معتدل وغير متطرف في أصوليته أو في حداثته، فرأى أنّ بعض خطابات المستشرقين تفرض الرد والدحض، وبعضها يستوجب التصحيح ودفع سوء الفهم، وبعضها الآخر يفتح أبواب الحوار والتثاقف على مصراعيه، وجب تبنيه والاستفادة منه.

كلمات مفتاحية: النقد الحضاري؛ مالك بن نبي؛ الإستغراب؛ الاستشراق؛ المناخ العقلي الإسلامي.

Abstract: This study aims to re-read the vision of the Algerian thinker Malek Bennabi of the discourse of Orientalism from the perspective of post-modern criticism, which is civilizational criticism. This is in line with the nature of the

* المؤلف المرسل

intellectual vision of Malek Bennabi, who presented In his writings, there is a balanced view of the Orientalist discourse in his treatment of the texts of the Arab Islamic civilization and its major narratives, as he did not tend to completely challenge and question everything that the Orientalists in general produced, He demonstrated the ability to use Occidentalism as a means of understanding the other and his intellectual and reference starting points and deconstructing them civilizationaly and culturally to know the nature of his thinking.

Keywords: Criticism of civilization; Malik Bennabi; Orientalism; Occidentalism.

1-المقدمة: اهتم الباحثون العرب بنقد خطابات الاستشراق لما تحمله من شك وريبة في نقل الحقائق والمعلومات عن العرب ونتائجهم الفكري، خاصة الاستشراق المرتبط بالدين الإسلامي والعقيدة، فقد كان هذا النوع من الاستشراق مرتبطا في بدايته بالحركة الصليبية ومعاداة الإسلام والعروبة، وكان من أهدافه النيل من المسلمين والحضارة الإسلامية، وكذا فتح الطريق للحملات التبشيرية وإضعاف الإسلام والتشكيك في قيمه وخلق الشعور بالنقص في نفوس المسلمين والشرقيين عامة وحملهم على الخضوع للتوجيهات الغربية ليتسنى لهم إستعمارهم سياسيا.

ومما لا شك فيه أنّ مالك بن نبي¹ من المفكرين العرب الذين اهتموا بقضايا الفكر والنهضة والدين في العالم العربي والإسلامي بشكل عام، ومن بين القضايا التي شغلته مسألة الاستشراق والمستشرقين وما كتبوه عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية وأثر هذه الكتابات في الفكر الإسلامي الحديث، فما هي رؤيته للآخر؟ وفيما تكمن نظرتة النقد حضارية لخطابات المستشرقين؟ وللاجابة عن هذه الإشكالية قسّمنا هذه الدراسة إلى أربعة محاور رئيسية:

- 1- ماهية النقد الحضاري
- 2- عباءة التنوير وهو محور حاولنا من خلاله أن نبرز رؤية مالك بن نبي للجانب المشرق الذي رسمه المستشرقون في مخيلة المجتمعات الشرقية.
- 3- الحضارة الشرقية ونظرة الغرب إليها

- 4- ردود فعل استغرابية وعرضنا من خلاله ما استنتجناه من آراء مالك بن نبي وما اقترحه من حلول لمواجهة الفكر الاستشراقي المتطرف، والتي تتمثل في:
 - العودة إلى أصل المشكلة.
 - فهم عقلية المستشرق وتحويله من دارس إلى مدروس.
 - إعادة إحياء المناخ العقلي الإسلامي وذلك من خلال:
 - العودة إلى المفهوم القرآني والعمل به.
 - التصدي لما ترسمه الكتابات الاستشراقية في المخيلة الشرقية.
 - إثبات الأنا (الشرقية) والاعتراف بها أمام الآخر (الغربي) من خلال العمل بالمناخ العقلي الاسلامي وما ينتج عنه من استقلالية وحرية في الفكر.

2- ماهية النقد الحضاري: يعتبر الإنتاج الفكري الإنساني المتوارث عبر الأجيال بمثابة مرآة عاكسة للفكر البشري عبر كل الأزمنة والأماكن، لطالما اهتم به الباحثين والدارسين في أبحاثهم التاريخية، والاجتماعية، والأدبية، ولقد حظيت المادة المكتوبة منه بالنصيب الأكبر من البحث بحكم ارتباط الكتابة بالوعي الإنساني وبمختلف الإنجازات الحضارية التي ساهمت في تطور الجنس البشري وتفكيره، وبالموازاة ابتكر هؤلاء الدارسون من أجل تحليل وفهم الأفكار المطروحة والمبثوثة في ثنايا الخطابات التراثية مناهج نقدية تتلاءم مع نوع الخطابات وحقولها، وبما أنّ الفكر الإنساني في تطور مستمر فإنّ هذه المفاهيم والنشاطات الإبداعية تستدعي بالضرورة التغيير والتجديد في آليات وأدوات تحليل الخطابات والنصوص.

نشأ العقل النقدي كنتيجة منطقية لتطور الفكر الإنساني، بداية من التفكير الفلسفي الذي أخذ في البحث في مسائل الوجود، كالبحث في ماهية الإنسان في حد ذاته ونقد الظواهر الكونية المحيطة به، والنقد بوصفه حراك فكري يتمتع بمرونة تجعله

يتكيف مع الخطابات المختلفة، فهو مرتبط بالعقل وبالتالي بقواعد وقوانين تكشف للقارئ غايات وأهداف الكاتب.

يرتبط النقد الأدبي عموماً بالمنهج أو الطريقة الواضحة في معالجة الخطابات والنصوص الأدبية، فظهرت عدة مناهج لعل أهمها وأبرزها المنهج التاريخي والاجتماعي والبنوي، وقد أحدث هذا الأخير نقلة كبيرة في مجال الدرس النقدي ككل من خلال تحليل العناصر المختلفة المكوّنة للنصوص الإبداعية، بجعل لكل نص بصمته الإبداعية التي تميزه عن باقي النصوص.

بعد أن تمحور اهتمام النقد الأدبي الحديث من خلال المنهج البنوي حول البنية الداخلية للنصوص الأدبية وإهمال العوامل التاريخية والاجتماعية والنفسية المحيطة بها، بدأ البحث عن نقد جديد يهتم بالنص ومحيطه، فانتقلت النظرية النقدية إلى مرحلة ما بعد حداثة من خلال الانفتاح على آفاق جديدة أدت إلى ظهور ما يسمى بالدراسات الثقافية، ومن أوائل من قال بالنقد الثقافي الباحث الأمريكي (فنسنت ب. ليتش) الذي دعا إلى (نقد ثقافي لما بعد البنوية) كبديل للنقد الأدبي، حيث يهتم النقد الثقافي بالأنساق الثقافية المضمرة في النص الأدبي، ويسعى إلى الكشف عن العيوب النسقية التي توجد في الثقافة، لتتحول المهمة من نقد النصوص إلى نقد الأنساق التي تمر متخفية وراء قناع الجمال اللغوي وتحت قناع البلاغة وجمالياتها.

إن فكرة الكتابة باعتبارها فعل إنساني واعي دليل على وجود وعي حضاري ارتبط بالإنسان منذ القدم، أي منذ أن بدأ الإنسان في التعبير عن ما يجول في فكره، بداية من النقوش والرسوم على الكهوف والمغارات وصولاً إلى تأليف الكتب بأنواعها، وتطور فعل الكتابة دليل على التطور المستمر للفكر الإنساني الذي يبقى بحاجة دائمة إلى نقد حضاري بعيداً عن المفاهيم البنوية والنسقية، يهتم بالمفاهيم والأفكار

المرتبطة بالحضارة الإنسانية عموماً، "فدراسة حركة المفهوم في الخطاب يمكن أن تكشف عن معانٍ جديدة لمفاهيم قديمة".²

عرّف أحمد يوسف النقد الحضاري بأنّه: "نشاط عقلائي يهتم بتحليل التغيّرات والتحوّلات التي تطرأ على مفاهيم الخطاب وقضاياها وأحداثه وإشكاليّاته، ويستعيد خلاصات الفكر الإنساني لإعادة فهم الحدث في الخطاب من منظور حضاري".³ أي أنّ غاية النقد الحضاري هي القضاء على المفاهيم الجامدة والكشف عن التحوّلات الفكرية والأسباب الحقيقية التي قد تؤدي بالحضارة إلى تقدّمها أو تراجعها.

يهتم النقد الحضاري إذاً "بدراسة الظواهر الإبداعية والثقافية والاجتماعية في الخطاب الإبداعي، وذلك بهدف انتاج مفاهيم جديدة وصيغ فكرية قادرة على خلخلة السائد والمألوف، مما يترتب عليه الارتقاء بالإنسان وبقيمه وسلوكياته، ومن ثمة تغيير الواقع إلى ما هو أفضل".⁴

تبرز الرؤية النقد الحضارية لمالك بن نبي في الكثير من مؤلفاته، منها: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، شروط النهضة وغيرها، وذلك من خلال سعيه الحثيث إلى الكشف عن تحولات الفكر في الخطاب الإسلامي وسبب تقدم وتراجع الحضارة الإسلامية في مواجهتها مع الفكر والحضارة الغربية.

إنّ اهتمام الغرب بالفكر الإسلامي قديم جداً، وقد لخصه مالك بن نبي في مرحلتين تاريخيتين، قسم من خلالهما المستشرقون إلى طبقتين من حيث وجودهم الزمني: طبقة القدماء مثل: جريز دوريباك والقديس توماس الإكويني، وطبقة المحدثين مثل: كاره دوقو وجولد تسهير، كما يصنفهم إلى طبقتين من حيث الاتجاه العام لكتابتهم عن الإسلام والمسلمين: طبقة المادحين للحضارة الإسلامية، وطبقة المنتقدين لها المشوهين لسمعتها.⁵

3- عباءة التنوير: ذكر مالك بن نبي مجموعة من المستشرقين وصنّفهم ضمن المستشرقين المادحين، أيّ الذين مدحوا النتاج الفكري للعلماء العرب والمسلمين واهتموا به وحاولوا إيصال علمهم إلى الغرب، أمثال: "رينو الذي ترجم جغرافية أبي الفداء في أواسط القرن الماضي ومثل دوزي الذي بعث قلمه قرون الأنوار العربية في إسبانيا ومثل سيدييو الذي جاهد الأبطال طول حياته من أجل أن يحقق للفلكي والمهندس العربي أبي الوفاء لقب المكتشف.. ومثل آسين بلاثيوس الذي كشف عن المصادر العربية للكوميديا الإلهية، لا شك أنّ هؤلاء العلماء كتبوا لنصرة الحقيقة العلمية وللتاريخ، وكل ذلك من أجل مجتمعهم الغربي⁶.

لقد أدرك المستشرقون إذن حجم الثروة الفكرية والحضارية لدى العرب والمسلمين فأرادوا أن ينهلوا من علمهم، لذلك "قصد بعض الرهبان الغربيين الأندلس في إبان عظمتها ومجدها وتنقفوا في مدارسها، وترجموا القرآن والكتب العربية إلى لغاتهم، وتتلّمذوا على علماء المسلمين في مختلف العلوم وبخاصة في الفلسفة والطب والرياضيات"⁷ وبعد أن عاد هؤلاء الرهبان إلى بلادهم نشروا ثقافة العرب ومؤلفات أشهر علمائهم، ثم أسست المعاهد للدراسات العربية، وعُدّت اللغة العربية آنذاك لغة العلم، حيث استمرت الجامعات الغربية تعتمد على كتب العرب وتعتبرها المراجع الأصلية للدراسات قرابة ستة قرون⁸.

يرى مالك بن نبي أنّ هذه الإنجازات أثّرت في المجتمع الإسلامي، خاصة الطبقة المثقفة منه، بأنّهم يدينون للغرب ومستشركيه في مواجهة مركب النقص الذي كان يعترى الضمير الإسلامي أمام الحضارة الغربية دون أن يدركوا أنّهم وقعوا ضحية لهؤلاء المادحين، لما تحمله من آثار سلبية على أفكار العرب وثقافتهم، وقد اصطلح

بن نبي على تسميته بالأثر المَرَضِي، وللكشف عنه رأى أنه من الضروري إعادة هذا النوع من الإستشراق إلى مصادره التاريخية.

يحصّر بن نبي اكتشاف الغرب للفكر الإسلامي في مرحلتين من تاريخ أوروبا:

- المرحلة الأولى: مرحلة القرون الوسطى وقد حصرها في مرحلة ما قبل وبعد طوماس الإكويني، رغبة منها في اكتشاف هذا الفكر وترجمته من أجل إثراء ثقافتها⁹.

- المرحلة الثانية: وهي المرحلة العصرية والإستعمارية، والغرض هذه المرة ليس ثقافياً وإنما سياسياً، من أجل "وضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية، ولتفسير هذه الأوضاع طبق ما تقتضيه هذه السياسات في البلاد الإسلامية لتسيطر على الشعوب الخاضعة فيها لسلطانها"¹⁰.

لا يتوانى بن نبي عن ذكر المغالطة التي أحدثها المستشرقون في أثناء اكتشافهم للفكر والعلم الإسلامي، حيث كانوا ينسبون في أغلب الأحيان لأنفسهم أو لأحد الأوروبيين، اكتشافات كبرى مثل دورة الدم الصغرى للإنجليزي وليام هارفي، بينما كان صاحبها، الطبيب المسلم ابن النفيس الذي عاش قبله بأربعة قرون¹¹، ومن نتائج هذه الحقائق المغلوطة التي نقلها المستشرقون حسب بن نبي أن "المثقفين العرب أصيبوا بشبه شلل في جهاز حسانتهم الثقافية في عزّ الصراع الفكري المحتدم بين المجتمع الإسلامي والغرب"¹². وأضحت مظاهر الثقافة الغربية تكسو المثقف المسلم، مؤثرة في أذواقه وسلوكه و"أصبح الفكر الإسلامي على إثر الصدمة الثقافية التي اجتاحتها وما تسبب عنها من مركب نقص ينحاز إلى معسكرين: أحدهما يدعو لِمَثَلُ الفنون والعلوم والأشياء الغربية- حتى اللباس- والآخر يحاول التغلب على مركب النقص"¹³. وهذا ما أدّى إلى الصّراع الفكري في العالم الإسلامي.

4- الحضارة الشرقية ونظرة الغرب إليها: يرى مالك بن نبي أن أي حضارة ما هي لإنتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل

به التاريخ، ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقاً للنموذج الأصلي لحضارته، إنّه يتجذر في محيط ثقافي أصلي يحدد سائر خصائصه التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى¹⁴.

ولطمس معالم حضارة العالم الإسلامي وتقدمه ابتكر العالم الغربي طرقاً لكبح نهضته، "فكلما تقدم المفكر المسلم لحل مشكلة ما يُسرّع الأخصائيون من طرف المستعمر الغربي لدراسة هذا الحل، فإن كان خاطئاً، زادوا في شحنة خطئه بطريقة أو أخرى، وإن كان فيه بعض ما يفيد حاولوا كل جهدهم للتقليل من شأنه، وتخفيض قيمته حتى لا يفيد"¹⁵، ومن الواضح أنّ المستشرقين قد تقطّـنوا - من خلال أهدافهم الاستعمارية- إلى عقدة النقص التي غرسوها في نفوس الشرقيين، فحاولوا توجيه أفكار المجتمعات الإسلامية بكل الوسائل توجيهاً يعزّز فيهم ذلك الشعور بالنقص والدونية، لذلك كانوا يركزون كثيراً على أفكارهم واتجاهاتها والنظر في ما إذا كانت "متجهة إلى الأمام، إلى المستقبل، أو إلى الخلف، اتجاهاً متقهقراً، ملتفتاً إلى الماضي بصورة مَرَضِيَّة"¹⁶. "لهذا السبب انكب المستشرقون يذكّرونهم بأمجاد الفكر في العالم الإسلامي التي كانت بمثابة حقنة مخدر ينتشي بها وهو في أعزّ ضعفه، ويشير بن نبي إلى "أثر هذا النوع من أدب المدح والتمجيد والإطراء على سير الأفكار، واتجاهها في العالم الإسلامي المعاصر، فنرى على الفور الجانب الآخر لهذا الأدب عندما يصير بين يدي أولئك الأخصائيين وسيلة عمل جهنمي في تحريك رجا الصراع الفكري المحتدم في بلادنا"¹⁷، والذي هو في الأساس صراع سياسي غرضه استعماري بحت.

ولقد خلص بن نبي إلى أنّ هذا الصراع السياسي سببه صنفين مختلفين من الصراع الفكري، يتمثل "الصنف الأول في السياسة التي تتمثل في "أفكار مجردة" وأما الصنف الثاني فهو السياسة التي تتمثل في "أفكار مجسدة"، فالسياسة التي تتطور

تبعاً "لأفكار مجردة" تعانق بحكم الضرورة الضمير الشعبي، ومن ناحية أخرى فإنها تلتزم المبادئ والمقاييس والقواعد التي تتحكم في سيرها..¹⁸، ويرى بن نبي أن هذه السياسة التي تتطور تبعاً لأفكار مجردة هي نفسها التي تتطور وتتحول إلى أفكار مجسّدة، بواسطة إنشاء كائن مركب أو "مركب أفراد"، لا بأس في امتلاكهم أفكار مختلفة لكن بأهداف موحّدة، حيث تحوّل أي فكرة تظهر في البلاد المستعمرة إلى فكرة متجسدة قريبة المنال ويكون له بالتالي خير وسيلة لمقاومة أي محاولة تظهر في البلاد المستعمرة لتعديل وتصحيح نظمها السياسية¹⁹، وعليه فإن أي محاولة لإعادة بناء الحضارة تقابل بالفشل مادامت العقيدة هشة ومادام الشقاق والصراع الفكري بين أفراد مجتمعاتها قائماً.

يثبت الواقع أنّ معظم أفراد العالم الإسلامي يعانون من نقص في فهم عقيدتهم ومركزاتها، مما يمنحهم ضبابية في الرؤية، ويسهل على المستعمر السيطرة على أفكارهم وتوجيهها، "فالقارئ المسلم بصفة عامة وبسبب تخلف بلاده لم يمتلك المقدرة الكافية في نقد الأشياء، حتى إنه لا يؤسس أحكامه على الأفكار، على جوهرها وطبيعتها مباشرة، ولكن على صورتها في مرآة معيّنة أي بعبارة أخرى على الصورة التي يريد الاستعمار إبرازها فيها، فهو يحكم عليها طبقاً لانعكاسها على بصر، لا وفقاً لبصيرته، وبمقتضى الضوء النفسي الذي يسلط عليها من الخارج لا بمقتضى ما في جوهرها من برهان"²⁰. ويرى بن نبي أن "بعض المشاركة المتعلمين للمستشرقين يخفون عملهم التخريبي ضد الإسلام، بايعاز واضح من أوساط استعمارية، تحت رداء تقدمية جوفاء تحاول سلب الإسلام من كل قيمة حضارية، بل تنسب له حالة التخلف الراهنة في العالم الإسلامي"²¹، وهنا يعقد مالك بن نبي مقارنة بين حضارة الشرق وحضارة الغرب من خلال العقيدة، كرد فعل طبيعي منه لما وصلت إليه المجتمعات الإسلامية من تخلف رغم أنها تملك بين يديها ما يقيها في قمة التحضر والتقدم، ألا

وهو المناخ العقلي الجديد، الذي "بدأ يتكون منذ بداية الوحي، حيث يفتح القرآن على الجانب العقلي: "اقرأ باسم ربك.." اقرأ هذه هي الكلمة الأولى التي تفتح إليها أول ضمير إسلامي، ضمير محمد، ويفتح لها بعده كل ضمير مسلم.. بينما يفتح كتاب العهد القديم، منذ السطر الأول في سفر التكوين على عالم الظاهرات المادية، ويفتح كتاب العهد الجديد في انجيل يوحنا، على عملية التجسيد"²².

يرى بن نبي أنّ وقع كلمة اقرأ التي نزل بها الوحي على سيدنا محمد والتي تنبئ ببداية الحضارة العربية الإسلامية، كان لها عظيم الأثر على الفكر الإنساني ككل لأن "الحرف ينقل ويبلغ الروح، وفي نفس الوقت يحفظه من الضياع، وسيحفظ أولاً وقبل كل شيء القرآن نفسه، ذلك الكتاب الذي لم يتغير فيه حرف واحد منذ أربعة عشر قرناً، على خلاف كل الكتب الأخرى، من العهد القديم إلى العهد الجديد، حيث لم يبق فيها، من ناحية صحتها التاريخية، إلا القيمة الرمزية، التي يحترمها النقد الحديث، دون أن يعتمد عليها من الناحية العلمية"²³.

ويرى بن نبي أنّ المجتمع العربي انتقل بفضل القرآن الكريم من الجهل إلى العلم من خلال مختلف الأفكار المطروحة في هذا الكتاب العظيم، إذ يقول: "وهكذا نرى كل ملامح هذا المجتمع النفسية تتغير منذ نزول"اقرأ" تغيراً يتولد عنه المناخ العقلي الجديد.. والذي تتوضح ملامحه أكثر في الضمير الإسلامي الناشئ عندما يلقي عليه القرآن مثل هذا السؤال: قل: هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون؟.. وهي بمثابة اختبار وتركيز في الضمير الإسلامي لقيمة العلم، وفضل رجل العلم على الجاهل في المجتمع الجديد"²⁴. إنّ هذا التذكير بفضل القرآن الكريم في بناء الفكر الإنساني في دعوته إلى العلم وإعمال العقل ينم عن رؤية حضارية لمالك بن نبي، وهي رؤية تأسيسية لوجوب التصدي لمركزية الغرب بالدعوة إلى التشبث

بالقيم الأخلاقية والدينية التي كانت سببا في وقت ما في جعل المجتمع العربي مركزا للعلم والقوة.

يعتبر الاستشراق المضاد أو الاستغراب طريقة ما بعد حداثة لنقد المركزية الغربية في نظرتها إلى الشرق، وهو تيار نقدي جاء كرد فعل منطقي لتجاوزات بعض المستشرقين الذين يحاولون جاهدا النقيض من شأن الشرق، من خلال تماذيه في دعوة المجتمعات الشرقية إلى "التخلص من خصوصياتها الثقافية، بحجة أن تلك الخصائص هي المسؤولة عن تخلفها وهي المعيقة لتطورها، ولهذا لم تقف المركزية الغربية عند حدود تقديم رؤية للعالم، بل تقدّمت بمشروع سياسي على صعيد العالم، هو مشروع تجانس الإنسانية المستقبلي من خلال تعميم النموذج الغربي²⁵، إضافة إلى سعيها لترسيخ بعض الثوابت والروى والأفكار والقناعات المتفق عليها في نظرة الغرب إلى العالم الشرقي المتمثل في (الدول الأفروآسيوية).

الهدف من الاستشراق المضاد إذن هو نقد رؤية الغرب-الأورو أمريكي تحديدا-للشرق بمنظوره ومعاييره، والتي هي نظرة بعيدة كل البعد عن خصائص المجتمع الشرقي الذي هو في حقيقة الأمر مجموعات حضارية وعرقية، لكل منها ثقافتها وخصائصها، فالمستشرقون يسعون من خلال نزعتهم المركزية إلى إعادة إنتاج المكونات التاريخية للشرق حسب ما يتناسب مع رؤيتهم وأفكارهم، إذ معظم دراساتهم لا تتم بمعزل عن معطيات العقلية الغربية ومركزيتها التي تحمل في ثناياها نزعة استعمارية.

4- 1 العودة إلى أصل المشكلة: يقول بن نبي في كتابه "شروط النهضة": "لقد ظل العالم الإسلامي خارج التاريخ دهرًا طويلا كأن لم يكن له هدف، استسلم المريض للمرض، وفقد شعوره بالألم حتى كأنه يؤلف جزءا من كيانه، وقبل ميلاد هذا القرن سمع من يذكره بمرضه، ومن يحدثه عن العناية الإلهية التي استقرت على وسادته،

فلم يلبث أن خرج من سباته العميق ولديه الشعور بالألم. وبهذه الصحوّة الخافتة تبدأ بالنسبة للعالم الإسلامي حقبة تاريخية جديدة يطلق عليها: النهضة²⁶.

يحاول بن نبي انطلاقاً من هذه الرؤية أن يجسّد المشكلة التي يعاني منها العالم الإسلامي منذ قرون، والتي أطلق عليها صفة المرض، فهي كالمرض الذي ينخر جسد صاحبه حتى يقضي عليه إن لم يكتشفه على الأقل ويبحث عن الدواء الملائم، وهو يرى أن العالم الإسلامي وبمجرد التفكير بنهضته فقد خرج من سباته - على حد تعبيره - واكتشف أنّ هناك مشكلة وجب التصدي لها، ومحاولة إيجاد الحلول قبل فوات الأوان، لكن مع بداية هذه النهضة لم يستطع هذا المجتمع ملازمة المرض بل اكتفى بتحديد أعراضه وبالتالي فهو لا يبحث عن العلاج بقدر ما يبحث عن تهدئة تلك الأعراض، كما يذكر أن هناك بعض الدراسات والمقالات والمؤتمرات التي تتصل بموضوع النهضة، وقد تناولت عدة قضايا، كالجهل والاستعمار والفقر، واختلال الاقتصاد والسياسة، لكن تنفّر إلى التحليل المنهجي، حيث أن كل مصلح وصف الوضع من زاوية نظره، فجمال الدين الأفغاني مثلاً كرجل سياسة رأى أنّ المشكلة سياسية، والعلاج بالتالي سياسي، والشيخ محمد عبده كرجل دين، رأى أنّ المشكلة لا تحل إلا بإصلاح العقيدة والوعظ، ولكن في الحقيقة هذا مجرد تشخيص وحديث عن الأعراض وليس عن حقيقة المرض، وكان من الأجدر إيجاد العلاج الملائم من صلب المرض أو المشكلة أي من صلب المجتمع الإسلامي، لكن ما حدث هو العكس، فقد توجه العالم الإسلامي إلى المكان الخاطئ لإيجاد حلول لمشكلاته، بحيث أخذ يبحث في الحضارة الغربية مستغلاً كل الوسائل والجهود في تحصيل حضارة غير حضارته.

4-2 فهم عقلية المستشرق وتحويله من دارس إلى مدروس: يرى بن نبي أنّ الإنتاج الاستشراقي بكل أنواعه (المادح والمفند)، كان شراً على المجتمع الإسلامي،

لأنّه ركب في تطوّره العقلي عقدة حرمان سواء في صورة المديح والاطراء التي حوّلت تأملاتنا عن واقعنا في الحاضر وأغمستنا في النعيم الوهمي الذي نجده في ماضينا، أو في صورة التنفيذ والاقلال من شأننا بحيث صيرّتنا حماة الضيّم عن مجتمع منهار²⁷.

لقد لخصّ بن نبي من خلال هذا القول مشكلة العالم الإسلامي في مواجهته مع العالم الغربي، من خلال ما يكتبه المستشرقون حوله، هذا الغرب الذي فهم العقلية الشرقية عندما درس لغاته ودياناته وعاداته وتقاليده وحضارته وجغرافيته، فكان من السهل عليه جدا رصد نقاط ضعفه وتركيب عقدة النقص لديه سواء بمدحه ومذح أسلافه أو بذمه وذم مقوماته، فأخذ يصدرّ إليه أفكاره الاستعمارية القائمة على تشييت الشمل أولا وتفكيك وحدته، عن طريق تقسيم المجتمع الاسلامي إلى مجموعات متنازعة فيما بينها، جزء ينازع من أجل اللغة والجزء الآخر من أجل الدين، ووصل بهم الأمر إلى "القول بقصور العقل العربي وعجزه عن الابداع وأنّ الإسلام يحارب العقل ويدعو إلى الجمود والتبعية والانقياد إلى تعاليم الله ورسوله، وبالتالي انعدام وجود فكر عربي في المجالين الفلسفي والعلمي"²⁸. كما توجهوا بالكتابة حول النصوص الصوفية للتشكيك في العقيدة الإسلامية "خاصة تلك التي ابتعدت عن الكتاب والسنة، فنجدهم يجعلون لـ"ابن عربي" مكانة خاصة في النشاطات الاستشراقية والاهتمام بالفرق المنحرفة"²⁹.

ورغم هذا فإنّ مالك بن نبي يرى أنّ للاستشراق مع جانبهِ السلبى ذاك جانباً إيجابياً، نجده تحديداً في الجانب الذي يذم وينتقص من قيمة العالم الشرقي، إذ يقول: "وعلى كل حال فإن أمكننا أن نصرح بأننا نجد على كل وجه جانباً إيجابياً في هذا الاستشراق فإننا لا نجده في صورة المديح، بل في صورة التنفيذ، فعندما يعلن

الاستشراق أنّه لا نصيب للعرب في تشييد صرح العلوم، وربما يؤدي بنا هذا الموقف المتطرف إلى تلافيه بعلمانية سطحية نشاهد أثرها حتى في انتاج بعض المفسرين³⁰.
تكمّن إيجابية الذم حسب هذا الكلام في كونه ينبه العالم الشرقي من غفلته ويوقظه من سباته الذي دام قرون، ويدله على مواطن ضعفه، وعليه فالحل بالنسبة إليه في التصدي للاستشراق لا يكمن في الوقوف موقف المدافع وإنما في موقف المنتج، وذلك لا يتأتى إلاّ بدمج الإسلام مع العلم "في صورة جديدة تتماشى أكثر مع سمو الدين ومنطق العلم، بحيث لا نصبح نبحت في الآيات الكريمة هل ذكر فيها شيء عن غزو الفضاء أو تحليل الذرة، وإنما نتساءل هل في روحها ما يعطّل حركة العلم، أو على العكس ما يشجعها وينميها"³¹.

تتركز رؤية مالك بن نبي في التصدي للعقلية الاستشراقية حول ما أسماه **بالمناخ العقلي الجديد**، ودوره في تطور العلوم، وهو مناخ نشأ مع ظهور القرآن الكريم، حيث "إن القرآن الكريم لم يأت قطعا، وبصورة مباشرة، لا بالحساب العشري ولا بالجبر، ولكنه أتى بالمناخ العقلي الجديد الذي يتيح للعلم أن يتطور"³².

يحاول مالك بن نبي من خلال هذه الرؤية توجيه النظر نحو الغرب ودراسته والحث على البحث في ما أنتجه وغربلته، محاولا فك عقدة النقص في علاقة الأنا الشرقي بالآخر الغربي، فيسرد لنا مجموعة من الحقائق حول العالم الغربي، والأسباب التي أدت إلى بعض اكتشافاته العلمية، والحديث عن علمائه أمثال أدونيس ببيان وواط وديكارت، وأنّ اكتشاف ظاهرة علمية ما قد يتأخر أجيالا رغم توفر نفس الأسباب التي تؤدي إلى حدوثها، إلا أن اكتشافها وملاحظتها لا يكون إلا في مناخ عقلي جديد، مثل اكتشاف ببيان لطاقة البخار، رغم أنها ظاهرة تتكرر منذ اكتشاف النار، لكن الفرق يكمن في أنّ ببيان وغيره "كان يمارس ملاحظاته ويتفهمها ويفسرها في

مناخ عقلي جديد تكوّن في أوروبا منذ قرنين من قبل. وهياً لهذا المناخ وكوّنه ديكرت، بواسطة خلق منهج يتّبعه الفكر الأوروبي في بحثه عن الحقيقة.

ويرى بن نبي أنه من أجل مواجهة المركزية الغربية ونظرتها الفوقية والاستعلائية إلى الشرق، لا بد من الالتفات إلى المناخ العقلي الجديد وجعله منهجاً في جميع مناحي الحياة، وذلك من أجل النهوض بالحضارة الشرقية من جديد، هذه هي "الزاوية بالذات التي تقدّر منها العلاقات العامة بين الإسلام والعلم، فموقف الانسان المسلم أمام عالم الظاهرات، والمنحدر الذي تتبعه العقلية الإسلامية تحت دفعة النص القرآني، والمناخ العقلي الجديد الذي ستتطور فيه هذه العقلية، هذه الأشياء هي في التالي العناصر الأساسية للقضية³³". فمعارضة العقيدة للعلم قد ينجر عنه نتائج كارثية، وأعطى بن مالك مثالا عن ذلك من المجتمع الأوروبي مجتمع ما قبل ديكرت، عندما أعلن جليليه عن نظرية دوران الأرض، حيث لم تواجهه معارضة علمية، بل واجهته معارضة عقائدية وأدانتها محكمة دينية التي هي نوع من أنواع القمع المجتمعي والتي حكمت عليه بالاعدام.

ويرى بن نبي أنّ "جليليه هذا لو كان يعيش في المجتمع الإسلامي، حتى لما بدأ في ذلك العصر في حركة الجزر الحضري، ما كان ليتعرّض لنفس العوامل التي حدّت من عمله العلمي³⁴". ما يدل على أنّ "المناخ العقلي الجديد، الذي تمتع به المجتمع الإسلامي عندما كان القدوة والنموذج في العالم، ما كان يعرف الإكراه كوسيلة قمع للفكر ولحرية الرأي³⁵".

4-3 إعادة إحياء المناخ العقلي الإسلامي: وصف مالك بن نبي مرحلة نزول القرآن الكريم وسير المجتمع الإسلامي بتعاليمه في كل مجالات الحياة، **بالمناخ الجديد** لأنه مناخ يختلف عن مناخ الجاهلية، التي هي مرحلة ما قبل الإسلام، إذ بفضلها أضحي وجود لما يسمى **بالفكر الإسلامي**، والاعتراف بما أسماه **درجات السلم**، إذ

يقول: "وهنا نرى في المناخ الجديد الفكر الإسلامي يضع سلما، يتسلقه الفرد، وهو يدلي بعلمه لمن دونه درجة، ويطلب العلم ممن فوقه، وهكذا ينطلق تيار العرفان في الاتجاهين ومن أسفل إلى أعلى أحيانا.. ولا شك أن هذا السلم هو الذي أتاح للفكر الإسلامي الانطلاق من عصر الشيئية في عهد العصر الجاهلي، للوصول إلى تلك القمم الشامخة التي أشع منها العلم على العالم الذي كانت تخيم عليه الظلمات"³⁶. لهذا وجب علينا كمسلمين أن لا نبقي مكتوفي الأيدي مكتفين بما يكتبه المستشرقون حول تلك القمم، بل لا بد من تذکر السلم الذي وضعه المفهوم القرآني وإعادة إحياء مناخه العقلي. ويمكن تلخيص نتائجه في النقاط الآتية:

أ- العودة إلى المفهوم القرآني والعمل به ليتم النهوض بالمناخ العقلي من جديد، ويتم التخلص من حالة الحرمان التي آل إليها المجتمع الاسلامي حاليا نتيجة التهافت وراء ذكر الدراسات الاستشراقية لعلومه وعلمائه، حيث يقول بن نبي: "واليوم أرانا تبهرنا هذه القمم الشامخة ونتيه في عالم الخيال لما تذكرها أقلام المستشرقين، وإن نكرتها يعتزينا مركب النقص، وفي كلتا الحالتين تصب هذه الدراسات في روحنا حرمانا مزدوجا، لا نستطيع التخلص منه إلا إذا تذكرنا السلم الذي وضعه المفهوم القرآني ليتسلقه الفكر الإنساني حتى يصل على درجاته إلى تلك الانجازات العلمية التي تهيمن حتى اليوم على التقدم التكنولوجي، مثل الحساب العشري أو الغباري، والجبر، والكيمياء وعدد من القوانين في عالم الكائنات العضوية، والطبيعية، والفلك، وإذا تذكرنا هذا السلم فلنعلم أنه ما زال تحت يد أو تحت قدم المجتمع الإسلامي متى أراد استخدامه من جديد"³⁷.

ب- التصدي لما ترسمه الكتابات الاستشراقية في المخيلة وما ينتج عنها من تبعات سلبية على المجتمع الإسلامي، في فكره وشخصيته، وعقيدته، وحتى حريته: يجب

"أن نقرر أنّ مساهمة الفكر الإسلامي في تنمية تراث الإنسانية العلمي ليست تقدر فحسب بانجازات يقرها أو ينفىها المستشرق، حسب هواه بل تقدر بالتغيير الجذري الذي أحدثه المفهوم القرآني في المناخ العقلي والبناءات العقلية، منذ كلمة "اقرأ"³⁸.

ج- إثبات الأنا (الشرقية) والاعتراف بها أمام الآخر (الغربي) من خلال العمل بالمناخ العقلي الاسلامي وما ينتج عنه من استقلالية وحرية في الفكر، "فعلينا أن نكتسب خبرتنا كذلك أي أن نحدد نحن موضوعات تأملنا وألّا نسلّم بأن تحدد لنا..علينا أن نستعيد أصالتنا الفكرية واستقلالنا في ميدان الأفكار حتى نحقق بذلك استقلالنا الاقتصادي والسياسي"³⁹. وهذه دعوة صريحة من مالك بن نبي إلى وجوب الاعتراف بالذات كخطوة أولى في سبيل الإصلاح والنهوض بالمجتمعات الإسلامية وإثبات وجودها، لأنّ المشكلة الأساسية ليست في النظرة الاستشراقية بل في قبولها من طرف المشرقيين والتي نتج عنها تبعية في جميع الميادين أولها المعرفة، فالمشكلة مشكلة أفكار وثقافة قبل كل شيء.

5-خاتمة: خلاصنا في نهاية هذه الورقة البحثية ومن خلال دراسة تلقي مالك بن نبي للظاهرة الاستشراقية، وتماشيا مع طبيعة مقارنته الاستغرابية التي انطلق منها في معظم مؤلفاته، إلى أنّ رؤيته النقدية تتمركز حينا حول الأنوية إثباتا لهويتها الحضارية، وأخرى تبرز فهما عميقا للآخر فتتصفه عبر فهم عميق لطبيعته الحضارية، فنجد لا ينكر إيجابيات بعض الدراسات الاستشراقية وحسب، بل يقر بفضلها وبقيمتها العلمية والأخلاقية، حيث يقدر ما خلفه بعض المستشرقين من أبحاث ودراسات، مثل ما خلفه سيدييو وجوستاف لوبون أو آسين بلاثيوس، لكن هذا الاعتراف يكون بنوع من الحيطة والتوجس، وحسبه فإنّ العيب ليس في الجهد النبيل الذي قام به هؤلاء وإنّما في من يستغله لأهداف سياسية كمدخل للصراع الفكري وفرض

السيطرة، حيث تصبح الأفكار مسخرة لتكون وسيلة تنفض بها العقول وتتفرق الضمائر.

كما خلصنا إلى أنّ مالك بن نبي وبحكم معاشته واحتكاكه بالمجتمعين الغربي والشرقي استطاع أن يلامس رأس الحقيقة وأن يضع اصبعه على المشكلة وحلها، فالمشكلة في رأيه هي في كون الاستشراق بسلبياته وإيجابياته وسيلة تفكير استعمارية ومجرد أداة للسيطرة على بعض البلدان الأفروآسيوية، من خلال فهم عقليتهم، عن طريق دراسة أديابهم وعلومهم وتقاليدهم.. والهدف هو طمس حضارتهم من خلال زرع الشك في مقوماتهم وثوابتهم وعقيدتهم، مستعينا بسلاح ذو حدين: وهو سلاح المدح والذم، فسلاح المدح يخدر العقول ويؤدي إلى سباتها من خلال التوقع في فترة ازدهار حضارة الأجداد، وسلاح الذم يؤدي إلى الدّفاع عن مجتمع منهار عوض التفكير في كيفية النهوض به من جديد، والهدف طبعاً هو زعزعة ثقته في نفسه حتى يسهل الطريق عليه ليكون تابعا له سياسيا واقتصاديا وفكريا، ليحصل في الأخير على شرقٍ مجردٍ من شخصيته ومستعمر بدون أن يشعر وفي كل المجالات.

أمّا الحل الأمثل الذي يقترحه بن نبي لهذه الأزمة الفكرية والحضارية التي يتخبط فيها الشرق حالياً، فيكمن في العودة إلى الأصل وهو العودة إلى ما أسماه **المناخ الفكري الجديد** الذي أوجده الإسلام والذي يشجع العلم والتعاون، هذا التعاون الذي وصفه بدرجات السلم، حيث يدلي الفرد بعلمه لمن دونه ويأخذه ممن هو أعلم به.

6- قائمة المراجع:

1- المؤلفات:

1. عبد الفتاح أحمد يوسف، النقد الحضاري للخطاب تحولات السؤال النقدي من المقتضى اللغوي إلى الرهان الحضاري، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2017.

2. عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، إشكالية التكون والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، ط1، 1997، بيروت.

3. مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، سورية، 1981.

4. مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، بيروت، ط1، 1969م.

5. مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، سورية، 1986.

6. مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة، أحمد شعبو، إشراف: عمر مسقاوي، دار الفكر، سورية، 2002.

7. مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، المكتب الإسلامي، ط2، بيروت، 1979م.

2-المقالات: هاشم أبو الحسن علي، الاستشراق والاستغراب، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، المجلد 25، العدد 25، مصر، 2016م.

7. الهوامش والإحالات:

¹ ولد مالك بن نبي سنة 1905 بمدينة قسنطينة في الشرق الجزائري، تلقى تعليماً قرآنياً وتعليماً فرنسياً، هاجر إلى فرنسا ودرس بها وتخرج بها مهندساً كهربائياً سنة 1935، ومكث

- بها إلى غاية 1963 حيث عاد إلى الجزائر واشتغل مديرا في وزارة التعليم العالي، وبعدها تفرغ للعمل الفكري إلى أن وافته المنية رحمه الله سنة 1973 بالجزائر العاصمة.
- ² عبد الفتاح أحمد يوسف، النقد الحضاري للخطاب تحولات السؤال النقدي من المقتضى اللغوي إلى الرهان الحضاري، ابن النديم للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2017، ص 34.
- ³ نفسه، ص33.
- ⁴ نفسه، ص42.
- ⁵ ينظر: مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، دار الإرشاد، ط1، بيروت، 1969م، ص5.
- ⁶ نفسه، ص8.
- ⁷ مصطفى السباعي، الاستشراق والمستشرقون مالهم وما عليهم، المكتب الإسلامي، ط2، بيروت، 1979م، ص13.
- ⁸ ينظر: نفسه، ص14.
- ⁹ مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين، ص 8.
- ¹⁰ نفسه، ص 9.
- ¹¹ ينظر: نفسه، ص 10.
- ¹² نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹³ نفسه، ص11.
- ¹⁴ مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة، أحمد شعبو، إشراف: عمر مسقاوي، دار الفكر، سورية، 2002، ص 41.
- ¹⁵ ينظر: مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين، ص15.
- ¹⁶ نفسه، الصفحة نفسها.
- ¹⁷ نفسه، ص 16.

- ¹⁸ مالك بن نبي، الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، سورية، 1981، ص 24.
- ¹⁹ ينظر نفسه، صص 25، 26.
- ²⁰ نفسه، صص 59، 60.
- ²¹ مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين، ص 23.
- ²² ينظر: نفسه، صص 32، 33.
- ²³ نفسه، ص 33.
- ²⁴ نفسه، ص 36.
- ²⁵ عبد الله إبراهيم، المركزية الغربية، إشكالية التكون والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، ط 1، 1997، بيروت، ص 33.
- ²⁶ مالك بن نبي، شروط النهضة، تر: عمر كامل مسقاوي، عبد الصبور شاهين، دار الفكر، سورية، 1986، ص 40.
- ²⁷ مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين، ص 25.
- ²⁸ هاشم أبو الحسن علي، الاستشراق والاستغراب، مجلة الجمعية الفلسفية المصرية، المجلد 25، العدد 25، مصر، 2016م، ص 330.
- ²⁹ ينظر: نفسه، صص 326، 327.
- ³⁰ مالك بن نبي، إنتاج المستشرقين، صص 25، 26.
- ³¹ نفسه، ص 26.
- ³² نفسه، ص 28.
- ³³ ينظر: نفسه، صص 29، 30.
- ³⁴ ينظر: نفسه، ص 31.
- ³⁵ نفسه: ص 32.
- ³⁶ نفسه، صص 40، 41.

³⁷ نفسه، ص 41.

³⁸ نفسه، صص 41، 42.

³⁹ نفسه، ص 48.